

# دبلوماسية القنوات الخفية وصفة فعالة لإخماد الحروب

جوناثان باول: من أجل إنهاء الصراعات يجب أن نفهم الجماعات المتمردة ونلتقي بها



## الحوار بديل جدي لوقف القتال

واستمر المساران، الرسمي وغير الرسمي، في العمل بالتنسيق الوثيق مع بعضهم البعض، مما أدى في النهاية إلى اتفاق سلام في عام 1997. واستشهد سليم بهذه المحادثات كمثال جيد لما يمكن أن تفعله دبلوماسية المسار الثاني وكيف يمكن للمسارين أن يجتمعا.

واحد الأسئلة التي لا يمكن تجنبها هو ما إذا كان يجب "التحدث مع الإرهابيين" أم لا؟ ومن المرجح أن يشمل مستقبل الحرب المزيد من الجماعات المتمردة والجهات الفاعلة العنيفة الأخرى من غير الدول حيث يرى محللون أننا بحاجة إلى أن نكون قادرين على التحدث معها أو على الأقل فهمها.

ونجح جوناثان باول رئيس أركان بلير السابق وكبير المفاوضين في محادثات سلام الجمعة العظيمة التي أنهت الصراع المستمر منذ عقود في أيرلندا الشمالية، فقط لأنه كان على استعداد للتحدث مع المجموعات العنيفة، بمن في ذلك ممثلو الجيش الجمهوري الإيرلندي الذي كان مسؤولاً عن هجمات إرهابية في بريطانيا. ولو كانت هذه المحادثات معروفة لوسائل الإعلام لكانت هناك عاصفة من الغضب على الاتصالات، ما يرجح أن يعرقل مسار السلام.

ومنذ ذلك الحين قاد باول جهود دبلوماسية المسار الثاني الناجحة لإنهاء النزاعات الأخرى في كولومبيا وأماكن أخرى. ويصر على أنه من أجل إنهاء الصراعات يجب أن نفهم الجماعات المتمردة، والطريقة الوحيدة لفهمها هي الالتقاء بها.

وإذا كانت دبلوماسية المسار الثاني تعد بنتائج حقيقية، فلماذا لا نستخدم أكثر؟ وفقاً للمفاوضين العاملين على المحادثات عبر القنوات الخفية في اليمن وليبيا وسوريا، فإن إحدى الإجابات هي أن الأمر يستغرق وقتاً. إنه يتطلب المزيد من الحوار والوساطة أكثر من صنع السلام التقليدي. إنه يتطلب خبراء يعرفون البلد جيداً وملتزمون بصياغة سلام دائم، وليس البيروقراطيين الذين يريدون فقط توقيع اتفاقية.

ولا تنتهي الحروب دائماً بالانتصارات؛ إنها بالتأكيد تنتهي ببلدان منكوبة وسكان مصابين بصدمات نفسية. وتتطلب صياغة سلام دائم الاعتراف بالناجين من هذا الرعب، سواء من خلال العدالة التصالحية أو العدالة الانتقالية. يجب دائماً إصلاح الضرر الناجم عن تلك الحروب استعداداً وبصورة رهيبة.

وعلى سبيل المثال، تخسر هذه المؤسسات في دبلوماسية المسار الثاني السرية في الصومال واليمن وأفغانستان. ومن المثير للاهتمام أن كل منظمة من هذه المنظمات الثلاث برأسها مسؤول كبير سابق في الأمم المتحدة شهد فشل النظام التقليدي في إنهاء النزاعات من أماكن قريبة.

وساعدت راندا سليم، مديرة برنامج حوارات المسار الثاني وحل النزاعات في معهد الشرق الأوسط ومقره واشنطن، في تسهيل مثل هذه الاتصالات من وراء الكواليس في تسعينات القرن الماضي في طاجيكستان، حيث كانت الحكومة تقاوم تمرداً إسلامياً. وعندما بدأت عملها كانت هذه واحدة من المرات الأولى التي تحدثت فيها حكومة ما بعد الاتحاد السوفياتي مع الإسلاميين الذين لم تكن لمشاركتهم في أي شكل من أشكال السلام فرصة تذكر.

وقالت سليم إن العملية كانت بطيئة في البداية وغالباً ما تكون محبطة ولكنها أدت إلى تقدم كبير. لقد أنشأت هي وفريقها القناة الخفية التي أرست الأساس لعملية سياسية رسمية بوساطة الأمم المتحدة ليتم إطلاقها.

ومن المرجح أن يشمل مستقبل الحرب المزيد من الجماعات المتمردة والجهات الفاعلة العنيفة الأخرى من غير الدول، ونحن بحاجة إلى أن نكون قادرين على التحدث معهم أو على الأقل فهمهم. وهنا يأتي دور دبلوماسية المسار الثاني، وهو مصطلح صاغه الدبلوماسي الأميركي جوزيف مونتهغيل في عام 1981 ("المسار الأول" هو عملية التفاوض التقليدية بين أطراف النزاع الرئيسية). وهذا النوع من الدبلوماسية الذي يتم بشكل غير رسمي يركز أساساً على الأطراف التي يتم جلبها إلى طاولة المفاوضات.

وغالباً ما يتم إجراؤه سراً بحيث يمكن تبديد كل المخاوف، بعيداً عن الأضواء الإعلامية وبعيداً عن السياسة العامة. لم يتم عقد المحادثات غير الرسمية من قبل الأمم المتحدة أو القوى الكبرى مثل روسيا ولكن غالباً من قبل المنظمات غير الحكومية والمؤسسات المحايدة الأخرى المتخصصة في حل النزاعات من بينها مؤسسة غيلمور بيرغوف ومركز الحوار الإنساني في جنيف والمعهد الأوروبي للسلام في بروكسل.

والسبب في ضم كل هؤلاء هو أن العديد منهم -القادة الدينيون والمجموعات النسائية ونشطاء المجتمع المدني- لديهم مفاتيح عملية صنع السلام.

ليس لديهم فقط إمكانية الوصول إلى السلطة على مستويات حاسمة، هم أيضاً الذين سيعيشون في مجتمع ما بعد الصراع، وليسوا الدبلوماسيين الذين ينزلون بالمظلات في جلسة تفاوض أو جلستين.

وهجرة الملايين الذين أصبحوا لاجئين، هل سيكون هناك أي نوع من العدالة الانتقالية؟ هل سترفع العقوبات للتخفيف عن السكان الجائعين، لكن مع مساعدة قاتل جماعي هو الرئيس السوري بشار الأسد؟

وهو مصطلح صاغه الدبلوماسي الأميركي جوزيف مونتهغيل في عام 1981 ("المسار الأول" هو عملية التفاوض التقليدية بين أطراف النزاع الرئيسية). وهذا النوع من الدبلوماسية الذي يتم بشكل غير رسمي يركز أساساً على الأطراف التي يتم جلبها إلى طاولة المفاوضات.

وغالباً ما يتم إجراؤه سراً بحيث يمكن تبديد كل المخاوف، بعيداً عن الأضواء الإعلامية وبعيداً عن السياسة العامة. لم يتم عقد المحادثات غير الرسمية من قبل الأمم المتحدة أو القوى الكبرى مثل روسيا ولكن غالباً من قبل المنظمات غير الحكومية والمؤسسات المحايدة الأخرى المتخصصة في حل النزاعات من بينها مؤسسة غيلمور بيرغوف ومركز الحوار الإنساني في جنيف والمعهد الأوروبي للسلام في بروكسل.

وفي الواقع فشل نظام القانون الدولي مع الأمم المتحدة في ذروته في تمكين التدخلات الإنسانية حتى يومنا هذا. فقط مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لديه سلطة الأمر بالتدخل، وعادة ما يمكن الاعتماد على سلطات الفيتو لحماية عملائها الذين يرتكبون الإبادة الجماعية. وغالباً ما تخفف طبيعة القانون الدولي ونظام الأمم المتحدة، وخاصة مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، التدخلات الإنسانية والسلام المستدام.

ويقول أندرو جيلمور، المدير التنفيذي لمؤسسة بيرغوف ومقرها برلين، إن هذا نتيجة لما أسماه "السلوك المروع" لسلطات الفيتو، والذي "يمنع بشكل متزايد الاتفاق، بما في ذلك كيفية تصرف الأمم المتحدة بنفسها بالطريقة التي كان من المفترض أن تمنع الحروب أو تنتهيها".

وتصل كل هذه القضايا إلى ذروتها في سوريا حيث ستنتهي الحرب في النهاية وسيتم إعادة بناء دولة محطمة. لا يمكن أن ينتهي هذا الصراع القاتل في وقت قريب بما فيه الكفاية، ولكن كيف ينتهي هو بنفس أهمية الوقت؟ هل يمكن لكل الفراء الاقتناع بأن السلام في مصلحتهم؟ أم أنهم سيصبحون عضلات في اتفاق معيب يبقى الماضي المرير حياً ومستمرًا؟ مع قتل نصف مليون سوري وهجرة الملايين الذين أصبحوا لاجئين، الانتقالية؛ هل سترفع العقوبات للتخفيف عن السكان الجائعين، لكن مع مساعدة قاتل جماعي هو الرئيس السوري بشار الأسد؟

## المسار الثاني

مع استمرار الحرب وعدم وجود حل تفاوضي في الأفق قد يتطلب الطريق إلى السلام استخدام فحص ومراجعة عملية التفاوض التقليدية للجمع بين أطراف

منذ جلوس الولايات المتحدة مع حركة طالبان المتمردة في أفغانستان إلى طاولة الحوار من أجل وضع حد للحرب الدائرة في البلاد منذ 19 عاماً، بات الغرب كما الحكومات المحلية التي تعاني من تمرد انفصالي أو جهادي تتجاوز تدريجياً محرمات الجلوس مع المتمردين قصد احتوائهم بدل مواصلة قتالهم. ويرى محللون في دبلوماسية القنوات الخفية خياراً جيداً لإحلال السلام.

في لندن، ومع ذلك منع ريتشاردز مذبة شاملة.

وقال ريتشاردز لاحقاً إنه تصرف بناءً على رد فعل جندي طبيعي لحماية المدنيين المذعورين. وقامت قواته بتأمين المطار وحررت الجبهة المتحدة الثورية وأنشأت مناطق آمنة للمدنيين، وهو أحد الإجراءات التي عشقها بعد ذلك السكان المحليون الذين وضعوا لافتات في جميع أنحاء المدينة تحمل شعار "ريتشاردز الرئيس".

وذهب ريتشاردز إلى الغاية للقاء أمراء الحرب، وأقنعهم بضرورة التوجه لمحاربة الجبهة المتحدة الثورية. ثم تمكن من إقناع جميع الأطراف، بما في ذلك الجبهة المتحدة الثورية، بأن أفضل نتيجة للجميع هي إنهاء القتال. عندما انتهت الحرب تم تكليف ريتشاردز ورجاله بنزع سلاح الفصائل المختلفة وتدريب جيش سيراليون الجديد.

وعرفت مهمة ريتشاردز نجاحاً باهراً رغم أنها بدأت كعملية استطلاع صغيرة تمت الموافقة عليها من قبل لندن فقط بهدف إجلاء المواطنين البريطانيين تعرف باسم عملية "باليسر" (PALISER). كان الإغراق السريع لتلك الحرب تقريباً عكس ما حدث في أفغانستان حيث قاد لائحة التحالف الدولي.

وأحد أسباب نجاح تدخل ريتشاردز المرجح في سيراليون هو أنه يعرف البلد جيداً؛ لقد التقى بمعظم الممثلين البارزين في رحلات سابقة، وفهم الخارطة والتضاريس والناس والعادات. والأهم من ذلك تم تحريك ريتشاردز لمساعدة المدنيين، قد يكون هذا أحد العوامل الحاسمة لنجاحه في إحلال سلام دائم في البلاد: لقد تم تدخله على أساس أخلاقية وإنسانية بحتة. لم يكن إنهاء الحرب مدفوعاً بأسباب تجارية أو استراتيجية مثل حرب العراق، أو استرضاء الأطراف الخطأ مثل الصراع البوسني، أو لأسباب سياسية داخلية في الغالب مثل الحرب في أفغانستان.

وأشرف رئيس الوزراء البريطاني آنذاك توني بلير على عملية "باليسر" على الرغم من أن ريتشاردز عمل إلى حد كبير دون إذن. وفي وقت لاحق استخدم بلير سيراليون كمثال لحل الحروب بطريقة بناءة. لكنه وضع بالفعل معايير التدخل العسكري على أسس إنسانية وأخلاقية في خطاب القاء عام 1999 في شيكاغو وأصبحت فكرة وجود أسس إنسانية تلزم المجتمع الدولي بالتدخل وتعرف باسم "مبدأ بلير".

ولم يمنح بلير أبداً الفضل الحقيقي في هذه الرؤية الرائعة لصنع السلام للمجتمع الدولي. وبدلاً من ذلك فإن إرثه قد خيم عليه دوره في دعم غزو العراق عام 2003، حيث دعم بالكامل حرب إدارة بوش المشؤومة.

لكن السبب الأكثر أهمية في عدم ترسيخ رؤية التدخلات الإنسانية البحتة هو أنها كانت غارقة في الجدل منذ البداية لأنها غالباً ما كانت أحادية الجانب كما هو الحال في سيراليون ولم تكن دائماً متوافقة مع القانون الدولي.

لندن - شهد التاريخ الحديث إلى جانب الحروب الأهلية وحروب التمرد والحروب الدينية، أيضاً حروباً بالوكالة وحروباً وقائية وحروباً لتغيير الأنظمة وحرباً عالمية على الإرهاب بعد 11 سبتمبر 2001، والتي تركزت بالأساس في العراق وأفغانستان.

ويذهب الفيلسوف السياسي مايكل ألزير إلى أبعد من ذلك عندما حاول تحديد الحجج الأخلاقية وراء الحرب وتقسيمها إلى حروب "عادلة" وأخرى "غير عادلة"، أي حروب يجب حوضها على أسس إنسانية وأخرى ليست كذلك. لكن الأمر الأكثر أهمية هو تحليل كيفية انتهاء الحروب في نهاية المطاف.

وهناك العديد من الصراعات التي نريد إنهاؤها، لكن طبيعة الحرب قد تغيرت، مما يجعل الحل وصنع السلام أكثر صعوبة. يمكن أن تنتهي الحروب بجرور عميقة تؤدي إلى المزيد من الانفجالات في المستقبل، مثل الصراع البوسني، أو يمكنهم الشفاء بطريقة سلمية نسبياً مع تآكل الحروب في سوريا والمستقبل غير المؤكد لأفغانستان، فضلاً عن الصراعات المستمرة في اليمن وإثيوبيا والصومال ومنطقة الساحل وليبيا وفنزويلا وأماكن أخرى.

## مبدأ بلير

من المنطقي إلقاء نظرة فاحصة على كيفية إنهاء الحروب بفاعلية. وإحدى الطرق هي عندما تكون هناك إرادة قوية لإنهاء النزاعات. وهناك تطور آخر جديد نسبياً في المفاوضات الدولية، وهو الآلية التي تعرف لدى الدبلوماسيين باسم "دبلوماسية المسار الثاني".

واحد الأمثلة المفيدة للغاية على استخدام الإرادة لإنهاء الحرب هو ما وقع في سيراليون، حيث حدث تدخل عسكري بريطاني ناجح لإنهاء الحرب الوحشية هناك في مايو 2000.

## لا بد دائماً من إصلاح الضرر

النفسى والاجتماعي الناجم عن جرائم الحرب وإلا فإن جذور تلك الحروب ستعود حتماً وبصورة رهيبة

واتسمت تلك الحرب بانتهاكات مروعة لحقوق الإنسان، بما في ذلك بتر أطراف المدنيين، والإغتصاب الجماعي، والتعذيب، وإحراق قرى بأكملها. قتل أكثر من 50 ألف مدني بحلول الوقت الذي وصلت فيه القوات البريطانية إلى مستعمرتها السابقة.

ووصل عميد الجيش البريطاني ديفيد ريتشاردز -الذي سبواصل قيادة قوات حلف شمال الأطلسي (الناتو) في أفغانستان وأصبح أعلى جندي في بلاده- حين كانت العاصمة فريتانو على وشك الوقوع في أيدي الجبهة المتحدة الثورية دون الحصول على إذن رسمي من رؤسائه



قوات حفظ السلام لا تؤسس للسلام